المدرسة المستنصرية
تخطيطها وزخرفتها•

المقدمـــة :

ان المدرسة المستنصرية التي تعد من مفاخر امتنا العربية الإسلامية والتي تعتبر آية من آيات العمارة الإسلامية واثر باق على مدى الزمن يعبر عن خلود هذه الأمة وكبريائها الذي كان وسيظل الى المستقبل البعيد شامخاً يحدث الأجيال العربية والإسلامية عن مفاخر أمتهم التي أعطت الكثير والتي أبدعت أنارت بعلمها ودينها ومبادئها جميع ارجاء العالم الذي كان في تلك الفترة ينظر إليها بالسمو والعظمة.

ان هذه المدرسة تعد بزخرفها وجمالها وتصميمها آية من آيات الفن الإسلامي الذي ظل عبر القرون وعبر مراحل التاريخ صفحة ناصعة بيضاء تهتدي بها الأجيال لعلمها وجمالها ورغم تعرض أجزائها للخراب إلا أنها ظلت مزدهرة بالفن الإسلامي العباسي.

لقد عنى المسلمون بزخرفة العمائر كما شأنهم ببقية الفنون الاخرى، الا ان هذه المدرسة شغلت فكري، ولحبي بها وتطلعي لمعرفة خفاياها وبنائها الجميل، وزخرفتها التي دفعني للكتابة والبحث عنها من خلال مصدرين الاول وهي المدرسة المستنصرية،والثاني بين أخبارها المتناثرة في الكتب والمؤلفات والمراجع التي ألفها أساتذة كرام سبقوني بالبحث عنها.

وسوف أتكلم باختصار حول تاريخها وبعض المعلومات حول ما يخص بنائها وأقسامها وزخارفها.

وانني اشكر هيئة الآثار لمساعدتي بالصور.

تشير المراجع والمصادر القديمة والتي تبحث وتهتم في أمور التاريخ والبلدان والادب والتي تؤكد بان هناك العديد من العمائر والمنشآت التي أنشأها الناس في مدينة السلام خلال العصر العباسي الزاهر منها الجوامع والمدارس والبيمارستانات والقصور والدور والحمامات والأسواق والخانات والمقابر وغيرها من المباني الدينية والمدنية وهذه تعد بالعشرات بل بالمئات، ولسوء الحظ ان قسم او العديد من هذه الآثار تعرضت للدمار واتلف اما من قبل عوامل الطبيعة او من الهجمات الشرسة التي تعرضت لها هذه الآثار النادرة وهذه الحضارة الزاهرة بعلمها ومبانيها العريقة التي توضح مدى براعة الفنان المسلم من الاستفادة من الحضارات العراقية السابقة وهضمها واستيعابها واخذ الجميل منها وتكوينه فناً اسلامياً ظل باقياً على مدى القرون وأثر في المجتمعات مما يفخر له وسيظل علماً للحضارة العربية الإسلامية[1].

• أ.د. ناهض دفتر- قسم الآثار – كلية الآداب - جامعة بغداد.

[1] خالد خليل حمودي / زخارف الابنية البغدادية في العصر العباسي.

فلو لاحظنا ان هذه الجامعة المستنصرية تضافرت في دمارها وازالة بعض معالمها كل من يد الانسان العابثة وعوامل الزمن ومع هذا يدل هذا الاثر على رقي الريازة العربية الاسلامية في العصر العباسي وجودة مزخرفيها وتفننهم في تجميل واجهات مبانيهم والاهتمام في تزويقها وزخرفتها[2]. وفي مدينة السلام اليوم العديد من الآثار التي تشهد على ما ذكرت من رقي الزخرفة وتفننهم بها مثل القصر العباسي وقبر معروف الكرخي وضريح الشيخ عمر السهروردي وباب الظفرية المعروف بالباب الوسطاني .

ويمكننا ان نستخلص من ذلك ما وصلت اليه العناية بزخرفة العمائر وتجميلها وحتى الابنية العسكرية كالاسوار ونلاحظ سيطرة ومقدرة الفنان المسلم في عملها واتقانها.

ولقد عنى المسلمون بزخرفة العمائر في مختلف العصور واقتبسوا من الفنون القديمة تلك العناصر التي تلائم الدين الاسلامي وتتناسب مع ذوقهم الفني الى ان تطورت واخذت مجراها وكون الفنان المسلم زخرفة خاصة مميزة عن تلك الزخارف القديمة بحيث اصبحت الزخرفة عنواناً من عناوين الفن الاسلامي.

ان العمائر في العصر العباسي تمتاز بضخامتها واتساعها، ومظهرها القوي وكثرة استخدام الزخارف المجسمة ولاسيما في واجهات العمائر واستخدامهم الاجر[3].

الجامعة المستنصرية هي احدى الآثار العباسية والتي سوف اذكر باختصار تاريخها وملحقاتها واذكر زخرفتها بصورة مفصلة اكثر.

انها من الناحية التاريخية تعتبر اول جامعة في العالم الاسلامي اهتمت بدراسة علوم القرآن الكريم والسنة النبوية والمذاهب الفقهية الاربعة وهي الشافعي والحنبلي والمالكي والحنفي وكذلك تدرس علوم العربية والرياضيات وقسمة الفرائض والتركات ومنافع الحيوان وعلم الطب وحفظ قوام الصحة وتقويم الابدان في آن واحد[4].

ان الجامعة المستنصرية كانت اول جامعة اسلامية جمعت فيها الدراسات الفقهية على المذاهب الاربعة في بناية واحدة هي مدرسة الفقه.

ويمكننا القول بان العمارة الاسلامية قد اكتملت شخصيتها وبلغت اوج تقدمها واعظم شأناً في العصر العباسي وهذا الذي نؤكده او يؤكده ما تبقى من آثار تلك الفترة ، ونلاحظ في الابنية الباقية ببغداد في ذلك العصر رغم قلة عددها لكنها تعكس السمات

---

(2) كوركيس عواد / المدرسة المستنصرية ، ص2.
الدكتور محمد عبد العزيز مرزوق / الفن الاسلامي ، ص9.
الدكتور زكي محمد حسن / فنون الاسلام ، ص54 و ص86.

(3) المصدر نفسه.

(4) ناجي معروف / تاريخ علماء المستنصرية ، ص27=
= ارنست كونل / الفن الاسلامي ، ص64.
الدكتور محمد عبد العزيز مرزوق / الفن الاسلامي ، ص80.

البارزة للعمارة والزخرفة آنذاك وتدل على خبرة واسعة في التخطيط والبناء وعلى مقدرة ودراية في اختيار المواد المناسبة وحسن استعمالها وبداعة عمالها وطراز وعمل وانشاء البنايات وفق المناخ الخاص بمدينة السلام – بغداد - والظروف المناخية للقطر مهمة جداً من ناحية البناء ، خصوصاً الزخارف محافظة على شكلها ورونقها رغم مرور زمن طويل عليها، ونلاحظ الذوق الرفيع والمهارة في ابداع الاساليب الفنية ، وتنسيق الاشكال الزخرفية[5].

ان المستنصرية خير مثال للعمارة العباسية والتي شيدها الخليفة المستنصر بالله (623-640هـ/1226-1242م) في سنة (625هـ/1227م) واستغرق بنائها ستة اعوام وتكامل بنائها سنة (631هـ/1233م)[6].

وكان الخليفة المستنصر بالله قد امر بانشاءها وقد تولى عمارتها استاذ الدار مؤيد الدين ابو طالب محمد[7].

ومن الملاحظ ان المدرسة متكونة من ساحة وسطية مستطيلة الشكل في جهتها الشرقية مدخل له واجهة شاهقة مزخرفة تبرز عن جدران البناية بينما يطل على الساحة بما يشبه الايوان الكبير ويحيط بالساحة الوسطية حجرات وغرف من طابقين وعلى طرفي الساحة ايوانان كبيران متقابلان ويقابل المدخل المسجد وهو مسجد صغير وفي الجانب الجنوبي توجد قاعات كبيرة للدرس يتقدمها رواق مرتفع. ونلاحظ ايضاً في الجانب الشمالي في البناية من الخارج دار القرآن بقي منها ايوانها فقط وهو مقابل جامع الاصفية وقد زخرفت جميع الواجهات وبواطن الاواوين بزخارف جميلة تتخللها العناصر الزخرفية الاخرى.

ونلاحظ بوضوح العناصر الزخرفية الهندسية تتخللها النباتية بينما يمتد في اعالي الجدران من الخارج شريط زخرفي من كتابات توضح من بناها ومن قام باصلاحها مع العناصر الزخرفية التي تتخللها وقد كانت موضع اعجاب الرحالة والمؤرخين خلال التاريخ الطويل[8]. نلاحظ من المخطط الطابق الاول للمدرسة والثاني في شكل رقم (1) و(2).

---

(5) خالد خليل الاعظمي / المورد (عمارات بغداد في العصر العباسي) ، ص22.

(6) مديرية الآثار العامة / المدرسة المستنصرية وصف آثارها الباقية .
خالد خليل الاعظمي / المورد (عمارات بغداد في العصر العباسي) ، ص44.
كوركيس عواد / المدرسة المستنصرية – مجلة سومر ، العدد الاول ، الجزء الاول ، ص80.

(7) المصدر السابق ، ص79

(8) كوركيس عواد / المدرسة المستنصرية ببغداد ، ص79.
خالد خليل حمودي / زخارف الابنية البغدادية (آفاق عربية).
مديرية الآثار العامة / المدرسة المستنصرية (وصف آثارها الباقية).
خالد خليل الاعظمي / عمارات المستنصرية في العصر العباسي (المورد).

ان التاريخ يشير الى ان الخليفة العباسي المستنصر بالله استقدم امهر المهندسين واحذقهم فأستفرغوا ما في وسعهم في وضع قياساتها وتخطيط ابعادها ثم البناؤون والصناع على تشييد البناء وزخرفته وتجميله بالكتابات واستمروا على ذلك بضع سنين حتى تكاملت في جمادي الآخرة في سنة 631هـ[9].

تقع هذه المدرسة في الجانب الشرقي من بغداد على ضفة دجلة اليسرى قريباً من رأس الجسر الشمالي المسمى (جسر الشهداء) من جهته السفلى وعلى بعد عدة امتار منه.

وتمتد المدرسة على ضفة النهر مسافة يبلغ طولها اليوم زهاء (105) امتار...فحدودها الغربية ثابتة تنتهي بنهر دجلة اما سائر حدودها فيمكن تعيينها اليوم بشيء من الصعوبة بالنظر الى ان بعض العمائر المستحدثة قد لاصقتها او داخلت مرافقها فضاعت بذلك بعض المعالم من حدود المدرسة الشرقية والجنوبية ولاسيما الشمالية فنجد هناك الاسواق والحوانيت والمخازن قد زاحمتها في رقعتها كسوق الرماح وسوق دانيال وسوق المولا خانه وقهوة المييز. نلاحظ اليوم ان هذه المدرسة جدد بنائها واهتمت هيئة الآثار بها وازيل كل ما لحق بها من مباني واظهرت من جديد وهي شامخة اليوم. ان عمليات الصيانة التي جرت على هذه المدرسة واستمرت لسنوات طويلة، فلو لاحظنا الواجهة المطلة على نهر دجلة قبل الصيانة شكل رقم (3) وقد ظهر هذا الاثر الجميل بعد الترميم والصيانة شكل رقم (4 و 5 و6).

ان المدرسة المستنصرية مستطيلة الشكل طولها يوازي مجرى نهر دجلة وهو يبلغ الآن 104.80م وعرضها من الجهة الشمالية 44.20م ومن الجهة الجنوبية 48.80م فتكون المساحة (4836م^2) هذا باستثناء الرصيف الحالي الذي يمتد حيالها على النهر الى مسافة معدلها 11.80م[10].

ان المدرسة تحتوي على غرف للدرس والنوم والطعام وخزانة للكتب والادوية والمخازن الاخرى والمطبخ، وفيه ايوان الشافعية والحنفية وايوان دار القرآن وايوان المدخل[11].

اننا يمكننا ان نعين في الوقت الحاضر ارتفاع البناية بطابقيها بالنظر الى ان مستوى فرش أي ارضية المدرسة قد تغير كثيراً عما كانت عليه في ايام عزها وقد جرى في الماضي تنظيف المدرسة من الاتربة المتكدسة من قبل هيئة الآثار لاعادتها الى سابق حالها، ان هيئة الآثار قامت بصيانة هذا الاثر منذ سنوات طويلة ولكنها شهدت اليوم اروع حملة لاعادتها الى ما كانت عليه وخصصت المبالغ اللازمة لرعاية هذا

---

(9) كوركيس عواد / المدرسة المستنصرية ببغداد ، ص79.

(10) المصدر نفسه ، ص6 و ص80.

(11) كوركيس عواد / المدرسة المستنصرية ص86.

الاثر القيم. انني تكلمت حول زخارف المدرسة بعد الصيانة والتي وجدتها على جدران هذه المدرسة وبذلك اصبحت نموذجاً رائعاً للزخارف الاجرية في العالم الاسلامي اجمع.

زخارف المستنصرية :

تحتفظ المدرسة المستنصرية بزخارف تدل على ذوق رفيع وعلى مهارة في ابداع الاساليب الفنية وتنسيق الاشكال الزخرفية فيه.

هذا وقد زخرفت جميع الواجهات وبوطن الاواوين بزخارف هندسية بديعة تتخللها العناصر الزخرفية النباتية بينما يمتد في اعالي الجدران من الخارج شريط من كتابات تبين عمارتها وزخرفتها، والذي كان موضع اعجاب كل من زارها[12].

ان من الملاحظ ان المستنصرية كانت عبارة عن انقاض ظل قسم منها يحتفظ بالخطوط والزخارف كما يتضح من خلال بعض الصور التي تشهد على هذ القول في بداية القرن الماضي لما وصلت اليه من اهمال سابق كما في صورة شكل (3) وكذلك لو نظرنا الى الايوان القريب من جامع الاصفية لنرى من شكل (7) كيف تساقطت هذه الزخارف الجميلة كذلك نرى في الصورة الاخرى ركن من اركان الايوان القريب من جامع الاصفية شكل (8) كما نرى قسم من زخارفه الجميلة.

نلاحظ هنا عناية هيئة الآثار بهذا الاثر العريق وما انجزته خلال مدة طويلة على ترميم هذا البناء حيث اولت اهتمامها بهذا الاثر واعطته اهمية خاصة في انجازه وارجاع زخارفه الى محلها الاصلي قدر الامكان.

ان من الملاحظ من المستنصرية ان الجدران المحيطة بالصحن جميعها مزخرف وكذلك باب المدرسة فلو اخذنا جميع ارجاءه لرأينا طغيان الزخرفة عليه نلاحظ الشكل (9) وهو يمثل صحن المدرسة القريب في جامع الاصفية وهو يمثل الايوان وبعض الغرف نلاحظ الصورة قبل وضع الزخارف في محلها اما الشكل (10) نلاحظ قسم من جوانب المدرسة اعيدت زخارفها.

ان الزخارف انتشرت على اجزاء المدرسة المستنصرية فنلاحظ ذلك الباب الرئيسي، وكذلك نلاحظ صحن المدرسة والجدران المزخرفة المحيطة به فاننا نشاهد انها على الاغلب زخارف هندسية تتخللها الزخارف النباتية، ونلاحظ الزخرفة ايضاً بسقف مسجد المستنصرية الصغير وهي تشبه الحصير وتسمى الزخرفة الحصيرية، ونلاحظ فوق محراب المسجد زخارف ايضاً متنوعة وهي زخارف نباتية متراكبة[13].

ان جميع غرف المدرسة لم تزخرف واجهاتها من الداخل الا غرفة واحدة فقد كانت فيما يظهر للناظر خاصة ادارة المستنصرية[14]. وهي القاعة الوحيدة التي زخرفت. ان اجمل زخارف المدرسة الآن، هي التي تزين بواطن الاواوين ، وما من

---

(12) خالد خليل الاعظمي / عمارات بغداد في العصر العباسي (المورد) ص24.

(13) ناجي معروف / تاريخ علماء المستنصري ، ج1 ، ص442.

(14) المصدر السابق.

شك في ان كثير من الزخارف قد تلف بفعل العوامل المختلفة وضاع، فخسرنا بضياعه عنصر مهم وثمين من عناصر الفن الاسلامي مما لا يعوض عنه[15]. نرى ذلك في شكل (7-8) واضحاً ، واعيد بعضها اليوم ونلاحظ في خارج المدرسة وعلى جدرانها شريط يلتف حولها من الكتابات وتتخللها الزخارف النباتية ويحيط بها سلسلة من الزخارف.

نلاحظ عناية العرب المسلمون بزخرفة العمائر في العصر العباسي وما وصلت اليه العناية بها على اختلافها.

فلو لاحظنا طريقة اعادة الزخارف للجدران في المدرسة المستنصرية أي الى مواضعها، من قبل لجان الصيانة فانهم يأخذون الاشكال القديمة كمرجع لهم في اعادة الزخرفة ، فمن البقايا الباقية، يعيدون على نمطها باقي الزخارف. فنلاحظ كيفية عمل جميع الزخارف بصورة عامة[16]. فانهم بعد ان يدرسون الزخرفة الباقية من الاثر يأخذون النماذج الباقية ويحاولون تقليدها بما فيها من زخارف ان كانت هندسية او نباتية او خطوط.

انهم بعد ذلك كانوا يرسمون الزخرفة على الورق ثم يرسمونها على الفايبر او الكارتون. وبعد ذلك يرسم نموذج الزخرفة عليها ثم يأخذون قالب من معدن خفيف ويرسمون عليه الزخرفة بحيث تصبح وحدة زخرفية ويفرغ بطن الزخرفة ثم يأخذون نوع من الآجر.[17]

ثم تأخذ الطابوقة وترش عليها بصبغ حتى يطبع عليها الزخرفة المراد عملها ثم يبدأ العمل بتفريغ المناطق المراد حفرها بواسطة ادوات متنوعة للحفر وتهذب الوحدة الناتجة وتضم مع الوحدات المتنوعة وباسماء مختلفة بشكل عامي او علمي حسب رأي المدرب الفني مثل (شمسه واسمها القديم سيكرون) أي النجمة ان كانت معشرة او مثمنة او الى آخره والاسم الآخر مثل (طبل ، بادمية ، طرنجة، كنده ، هليطة ، وربع شمسه)[18]. فنلاحظ تسمية النجمة السداسية (ششه) او (شتكرون). اما الشكل الذي يشبه الصليب المعقوف فيسمى (بجار علي)[19].

---

[15] مصطفى جواد / (آثار بني العباس في العراق) مجلة الهلال ، ص41.

[16] هذا ما ذكره المدرب الزخرفي في موقع العمل السيد (صالح احمد القصير) وطرق عمل زخرفة المدرسة.

(17)وهناك انواع من الآجر منها المسمى (براك وهو الطابوق الفرشي العادي) والثاني (المطلي وهو طابوق فرشي اسمك من السابق) والديناري وهو صغير لا يستعمل بالزخرفة

(18) هذه التسميات اخذت من مدرب الزخرفة الذي يعمل في المستنصرية وحسب توصياته. وقد ذكرها المرحوم الدكتور كاظم الجنابي في محاضرته .

[19] نقصد بالصليب المعقوف السواستيكه وهو (يرمز الى الخير واليمن والبركة) نلاحظ ذلك في (تاريخ علماء المستنصرية / تأليف ناجي معروف / في ايوان الشافعية).

وبعد جمع الزخارف المتنوعة يوضع مخطط على الارض يشبه المصطبة فيها رسم كامل لزخرفة معينة مثل قوس من الاقواس فتركب الزخارف على الرسم فتوضع وحدة زخرفية متكاملة مع وحدة اخرى حتى يكمل الشكل فتقطع بعد اكمالها الى ارباع وتنقل الى الجدار لتثبيتها.

ان رغم الادوات المتوفرة لدى العمال الحاليين الا ان العمل السابق كان اكثر اتقان واجمل وباعتراف العاملين في المدرسة بان السابق هو اتقن وانهم كانوا اكثر اتقان واكثر تجربة وامهر وذلك لاحترافهم هذه الشغلة أي الزخرفة من اجدادهم القدماء. اذن ان الفن الاسلامي والفنان المسلم في تلك الفترة ابرع رغم الفارق الزمني وادواته البسيطة الا ان الفن كان اعمق وادق عندهم.

بعد هذا العرض لعمل الزخرفة نستطيع ان نقسم الزخارف المذكورة الى ثلاثة انواع رئيسية :

1- الزخارف الهندسية 2- الزخارف النباتية 3- الزخارف الكتابية

1- الزخارف الهندسية :

ان الطرق التي تبعت في تكوينها هي طرق متعددة ابرزها ثلاث هي طريقة تصفيف قطع الآجر باوضاع مختلفة وقد برز بعضها عن سطح الجدار احياناً مما يؤلف زخرفة تشبه في شكلها العام حياكة الحصير لذلك اطلق عليها اسم الزخرفة الحصيرية نرى مثل هذه الزخرفة بوضوح في السقف الموجود في مسجد المستنصرية وكذلك على الواجهة المطلة على نهر دجلة[20].

ونلاحظ ايضاً جدران الطبقة العليا من المستنصرية مزخرفة من خارجها بزخارف اعتيادية تتماثل في بعض وتختلف في بعضها الآخر وهي نفس الزخرفة المذكورة اعلاه أي الزخرفة الحصيرية.

وزخارف الآجر في هذه المدرسة تشابه زخارف القصر العباسي في بغداد ففي كليهما تبدو الزخرفة العربية باجلى مظاهرها ونرى التفنن في ذلك قد بلغ حداً قل ان نجد ما يماثله في المباني الاسلامية في العراق[21].

نلاحظ في الشكل (11) الواجهة المطلة على نهر دجلة وهي مزينة في طابقها العلوي بالزخارف الآجرية الهندسية.

ان الاشكال الهندسية البسيطة كالمثلث والمربع واشكال المعين والخماسي والسداسي كانت من مميزات الفن الاسلامي في الزخرفة وكذلك نلاحظ زخارف الاطباق النجمية وهي زخارف متعددة الاضلاع تركب بعضها الى جوار بعض بحيث

---

[20] خالد خليل حمودي / زخارف الابنية البغدادية في العصر العباسي ، ص93.

[21] مصطفى جواد / (آثار بني العباس في العراق) مجلة الهلال ، ص41.

يتألف منها شبه طبق في وسطه شكل نجمي. وقد اقبل المسلمون على استعمال هذا النوع من الزخارف في العصر السلجوقي[22].

لقد ساعد الفنانين المسلمين على التوفيق في هذا النوع هو معرفتهم ودرايتهم بالهندسة العملية والنظرية.

نلاحظ بالزخارف الهندسية التي تحتل مكان الصدارة بين تلك الانواع وتطغي على الجدران المحيطة بالطبق ، بالاخص بشكل يدركه الناظر بوضوح.

ان ابرز ما تمتاز به هو تنوع الاطباق النجمية التي استعملت النجوم ذات الرؤوس المتعدد منها ، ستة وثمانية وعشرة واثنتي عشرة واربعة عشر. وهذه النجوم التي تؤلف عماد تلك الزخارف نراها محاطة بمضلعات لوزية الشكل تدور حولها مضلعات مختلفة الاشكال او نجوم صغيرة خماسية واحياناً نجد مضلعات تدور في فلك هذا الشكل الزخرفي ، وبها اشكال منتظمة او غير منتظمة تفنن صانعها في ابتكارها كما ظهرت بينها مضلعات تؤلف اشكالاً تشبه الصليب المعقوف (السواستيكه). الى جانب ذلك استعملت اشكال هندسية اخرى نراها احياناً تضم نجوماً ومضلعات منتظمة وغير منتظمة واحياناً مضلعات اشكالها منتظمة او مختلفة الاضلاع.

ومما تتصف به هذه الزخارف هو تزيينها بزخارف نباتية في داخل الشكل الهندسي او خطوط متداخلة متشابكة بشكل يثير الاعجاب[23].

ان هذه الطريقة الثانية في الزخرفة أي التي ذكرتها حول استخدام الاشكال الهندسية كالاطباق النجمية والمضلعات تعتمد على الدوائر واقطارها التي تؤلف من تقاطعها والتقاءها الاشكال الجميلة ، وهي تدل على التطور الكبير الذي طرأ على هذا النوع من الزخرفة ونلاحظ مدى عناية الفنان وابداعه في هذا المجال وحبه لعمله واخلاصه في تنفيذه ، ونلاحظ انها لم تفقد رونقها وبهائها ، ونلاحظ الشكلين (12-13) وهو يوضح شكل النجمة والشكل الآخر رسم توضيحي للزخرفة .

نلاحظ ان صحن المدرسة محاط بجدران وهي مزينة بالزخارف الهندسية الجميلة كما نلاحظ ذلك في صورة رقم (10) ونلاحظ ان هذه الزخارف الهندسية يتخللها الزخارف النباتية او بداخلها او قسم منها تتخللها اشكال هندسية ونلاحظ الزخارف الهندسية فوق ابواب الغرف من الخارج على صحن المدرسة كما في الشكل (14-15).

كما نلاحظ الزخارف الهندسية في الاواوين،قد بولغ في اتقان بناءها وتجويد زخرفتها الهندسية والنباتية الدقيقة مما يدل على علو كعب القوم في الريازة[24].

---

(22) ابو صالح الالفي / الموجز في تاريخ الفن العام ، ص194.
الدكتور زكي محمد حسن / فنون الاسلام ، ص248.

(23) خالد خليل حمودي / زخارف الابنية البغدادية في العصر العباسي ، ص93.

(24) كوركيس عواد / المدرسة المستنصرية ببغداد ، ص86.

كذلك نلاحظ ايوان المدخل وقد زين ايضاً بالزخارف الهندسية التي تتخللها الزخارف النباتية كما في الشكلين (16-17) فالزخارف تبدو على جميع واجهات المدرسة من الداخل على واجهة الصحن. اما جميع واجهات الغرف من الداخل فلم تزخرف الا غرفة واحدة ان هذه القاعة هي الوحيدة من بين سبع قاعات كبرى زخرفت مما يدل على انها كانت لناظر المستنصرية[25].

كما نلاحظ الزخارف الهندسية واضحة على باب المدرسة الرئيسي والذي يتكون من اطار من الآجر غير مزخرف، ثم من اطار ثان مزخرف بخسفات عميقة متصلة ببعضها، ثم اطار ثالث غير مزخرف ، ثم اطار مدور نافر مزخرف كله، ثم اطار آخر مزخرف، بعد ذلك حبل مضفور زخرفي يكون اطار مدوراً نافراً ايضاً وهو بديع للغاية ، ثم عشرة اسطر كتابية من عهد الخليفة العباسي المستنصر بالله، ثم حشوة من الزخارف الاجرية تحت الكتابة وفوق المدخل في وسط قطع مزخرفة من الآجر كتب فيها بالآجر آية' كريمة سوف نذكرها بالزخارف الكتابية القادمة كما في الشكل (18) ويلاحظ ان كل ما ذكرته حول المستنصرية هو بعد وترميمها من قبل هيئة الآثار لانها سابقاً كانت متساقطة الزخرفة الا قسم قليل منها كان لا يزال باقياً كما تشاهد منظر الواجهة قبل الترميم شكل (3) اذن الكلام الحالي حول الزخرفة انما هو بعد الصيانة.

اما النمط الثالث فقد استخدم زخارف هندسية قوامها قطع صغيرة من الآجر ذات احجام واشكال متباينة تؤلف في مجموعها شكلاً هندسياً وتظهر تارة بمستوى واحد من سطح الجدار وتارة اخرى تظهر اجزاء منها بارزة مما يكسبها تجسيداً ووضوحاً اكثر كما في الشكل (11) تظهر واضحة في زخارف الطبقة العليا فنلاحظ الشريط الزخرفي الذي على عرض الشباك الفوقاني وعلى امتداد المدرسة من ناحية نهر دجلة.

2- الزخارف النباتية :

لقد اهتم المسلمون بالزخارف النباتية، غير انهم ابتعدوا في بعض الاحيان عن مظهر النبات الطبيعي ، فظهرت زخارفهم النباتية مجردة كل التجريد بحيث لا يبقى من الساق والاوراق الا خطوط منحنية متتابعة. ويطلق على هذا النوع من الزخارف النباتية المجردة (الارابسك) وقوام الارابسك خطوط منحنية او مستديرة او ملتفة يتصل بعضها ببعض فتكون اشكالاً حدودها منحنية، وقد يكون بينها فروع وزهور ووريقات لها غصن او غصنان او ثلاثة او اكثر وقد يراعى في هذه الاشكال والغصون مبدأ التقابل والتوازن ، ومن الصعب ان نرى في الاشكال والفصوص مبدأ التقابل والتوازن ، ومن الصعب ان نرى في هذه الموضوعات الزخرفية صوراً حقيقة للنبات[26].

نلاحظ ان العنصر النباتي تأثر تأثراً بانصراف المسلمين نحو تقليد الطبيعة تقليد صادق وقد كانوا يستخدمون الجذع والورقة ولتكوين زخارف تمتاز فيها من تكرار

---

[25] ناجي معروف / تاريخ علماء المستنصرية ، ص442.

[26] ابو صالح الالفي / الزخرفي تاريخ الفن العام ، ص195.

وتقابل وتناظر وتبدو عليها مسحة هندسية جامدة تدل على سيادة مبدأ التجريد والرمز في الفنون الاسلامية[27].

ويوجد بالمستنصرية انواع من الزخرفة النباتية منها على شكل شريط يسمى عند العاملين على زخرفة المدرسة (زنجيل نباتي) وهو يحيط بالزخارف بصورة عامة كأطار ، وهناك النباتي (الزهري) المتناظر او يسمى نباتي متناظر (السليمي)[28]. وهناك زخرفة نباتية تسمى المتناظر المتراكب كما في شكل (12) في وسط النجمة الهندسية مثال ذلك في محراب مسجد المستنصرية فنلاحظ على المحراب هناك زخارف وهي من نوع زخرفة نباتية متراكبة غير متناظرة.

ان الزخارف النباتية استعملت احياناً في مساحات خصصت لها وبصورة مستقلة كما في الجزء العلوي لواجهة المدخل من الخارج فنلاحظها في القسم العلوى عبارة (بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ) بصورة واضحة كما في الشكل (18) ونلاحظها بين الكلمات والحروف والكتابات بصورة عامة على باب المستنصرية من الخارج. وكما ذكرت نلاحظها في الجزء العلوي من محراب المسجد. ونلاحظها أي الزخارف النباتية تملأ بواطن المضلعات الهندسية والاشرطة الزخرفية وبعض الاطارات التي تفصل بين الاشكال الهندسية او الممتدة بين المقرنصات الزخرفية وكذلك نلاحظها بين الكلمات والحروف في بوابة المدخل على شكل اغصان مورقة متموجة حتى تظهر الكتابة كأنها فوق مهاد زخرفي.

ونلاحظ ان العناصر الرئيسية للزخرفة النباتية تتمثل في عنصر واحد رئيسي هو المروحة النخيلية (البالمت Palmette) بشكلها البسيط او المفصص وانصافها او اشكالها المركبة. اضافة الى ذلك استعملت في ارضية بعض الكتابات ما يشبه الاوراق تنتشر في الفراغات بصورة منفصلة بعضها عن بعض[29].

نلاحظ ان هناك ظاهرة النمو فالبعض يمتد وتظهر منه الاوراق ثم تمتد هذه الاوراق فتنبت اوراق اخرى وكذلك تمتاز هذه الزخارف النباتية بظاهرة لم نشاهدها من قبل تلك هي دقة عناصرها بصورة عامة حتى نجدها في اغلب الاحيان تشبه الفروع او الخطوط المتشابكة تجعل المرء لا يسأم منها أي من النظر اليها كما نجح في اعطائها بالحيوية من خلال حركتها الانسيابية البديعة. ان الزخرفة النباتية في المدرسة المستنصرية تعتبر من ابدع انواع الزخرفة تعقيداً ونضوجاً بالنسبة لما وصل الينا من العصر العباسي. فنلاحظ الزخارف النباتية تتخلل الزخارف الهندسية كما في شكل (17)

---

[27] الدكتور زكي محمد حسن / فنون الاسلام ، ص250.

[28] السليمي (تسمية مدرب الزخرفة بالمستنصرية وهي عامية وتطلق على الزخرفة النباتية المتناظرة) ونسبة اسمها السليمي الى سليم باشا.

[29] خالد خليل حمودي / زخارف الابنية البغدادية في العصر العباسي ، ص93

فنلاحظها في داخل الاشكال الهندسية والنجمية كما في شكل (7-8) في الايوان القريب من جامع الاصفية.

3- الزخارف الكتابية (الكتابات) :

ان العناصر الكتابية في الكتابات العربية ساعدت على اتخاذها عنصراً مهماً من العناصر الزخرفية الجميلة. ونستطيع ملاحظة ان الكتابات التي نقرؤها على العمائر تتضمن في الغالب بعض العبارات الدعائية او الآيات القرآنية وقد يكون تسجيلاً للتاريخ وقد يقصد بها ان تكون عنصراً زخرفياً. والمعروف ان الفنانين المسلمين عمدوا الى سيقان الحروف ومداتها فزينوها بوريدات وبالزخارف النباتية ووصلوا بين بعضها بخطوط كانت في بعض الاحيان منثنية. وقد عمدوا احياناً الى كتابة الحروف المزخرفة الجميلة على ارضية من زخارف نباتية اخرى. وقد استخدم الفنانون المسلمون الاشرطة الكتابية على العمائر[30].

ان الخط العربي اكثر ملائمة واصلح في الزخرفة لما يمتاز به من استقامة وانبساط وتقويس ، والخطوط العمودية والافقية يسهل وصلها بالرسوم الزخرفية الاخرى وصلاً يتجلى فيه الجمال والاتزان والابداع[31].

ان للكتابة الزخرفية شأن عظيم في تاريخ الفنون الاسلامية إذ نستطيع ان نتخذها اساساً وسبيلاً لتاريخ العمائر والتحف ذات الكتابات ولان كل عصر ولكل اقليم في العالم الاسلامي اسلوب في الخط وزخرفته فيستطيع ذو الخبرة ان يدرسوا الزخارف الكتابية وان ينسبوا البناء الى العصر او الاقليم حسب نوع الخط. ان الاشرطة الكتابية وما فيها من جمال تبعد الملل لما فيها من زخارف هندسية او نباتية ولاسيما ان الفن الاسلامي يفرط في استعمال الزخارف افراطاً كبيراً ويحرص على ملأ وتغطية الفراغات والمساحات بهما كلما استطاع الفنان الى ذلك سبيلاً[32].

لقد شاع استخدام الخط النسخي في القرن السادس الهجري 12م وقد كان قبل ذلك لا يستعمل الا في المخطوطات[33]او بعض الاستخدامات المحدودة.

ان الكتابات وهي النوع الثالث من الزخارف في المدرسة المستنصرية نجدها في حقول متعددة تزين واجهة المدخل من الخارج كما نلاحظ ذلك في الشكل (18-19) كما تظهر بشكل شريط يمتد في اعالي الجدران الخارجية كما في شكل 11، وهذه الكتابات تؤدي وظيفتين معاً اولهما وسيلة للتعريف بالبناء ، والثانية عنصر زخرفي فنجد على واجهة المدخل عشرة اسطر افقية تتضمن تعريفاً بالبناية واهدافها وذكر

---

(30) ابو صالح الالفي / الموجز في تاريخ الفن العام ، ص196.

(31) الدكتور زكي محمد حسن / فنون الاسلام ، ص235.

(32) الدكتور زكي محمد حسن / فنون الاسلام ، ص235.

(33) ابو صالح الالفي / الموجز في تاريخ الفن العام ، ص197.

مؤسسها الخليفة المستنصر بالله مع تاريخ بنائها[34]. ونلاحظ ان هذه الكتابة تظهر فوق مهاد من زخارف نباتية قوامها اغصان يخرج منها اوراق او مراوح نخيلية نصفية سبق ان ذكرت بعض المعلومات عنها في الفقرة السابقة بالعناصر الزخرفية النباتية. وان هذه الزخارف النباتية تمتد بين الكلمات والحروف بشكل متموج. لقد اعيدت الكتابة كما في شكل (19) الى مكانها فوق باب المدرسة بعد ان اقتلعها الغزاة في فترات الاحتلال السابقة الى ان اعادتها هيئة الآثار بعد الترميم والصيانة. نلاحظ ان هناك على طول واجهة المستنصرية المطلة على نهر دجلة وعلى السوق المجاور وعلى جانبي المدرسة كتابة نقشت في الجدار واعادت زخارفها وكتاباتها الى محلها نلاحظ في صورة شكل (3) قبل الترميم نلاحظ اجزاء من الكتابة تظهر وهي المطلة على نهر دجلة. اما بعد الترميم واعادة الزخارف والكتابات في صورة شكل رقم (11).

ان الكتابات تعلو المدرسة داخل شريط من الخارج أي خارج المدرسة معظمها آيات قرآنية وعبارات دعائية اضافة الى التعريف بالبناية والغاية من تأسيسها واسم مؤسسها وتاريخ بنائها. اما نصوصها غير كاملة حيث تعرض معظمها للزوال او التشويه والتلف وقد تناولها الباحثون بالدراسة والتحليل واشار بعض الرحالة الى نصوصها ولكن زالت معالمها اليوم[35]. ونلاحظ الزخارف بين الحروف مثل خلايا النحل.

لقد انجزت الكتابات بطريقتين رئيسيتين فنراها في واجهة المدخل ذات حروف بارزة نحتت على قطع الآجر تتخللها زخرفة نباتية اما الاشرطة الممتدة فوق الجدران الخارجية فتظهر الكتابات بصورة وبحروف بارزة كبيرة نحت كل حرف منها بصورة منفصلة من قطعة او اكثر من الآجر بينما ملئت الفراغات بين الحروف والكلمات بورود ذات فصوص غائرة وهي متلاصقة ومتجاورة على شكل شبكة تضفي تجسيماً على الحروف الى جانب التجسيم الذي صممت به الحروف من خلال بروزها عن الارضية وحجمها الكبير[36].

وتضمنت نصوص المدخل للمدرسة المستنصرية كما يلي :

1- بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
2- قد انشأ هذه المدرسة رغبة في ان الله لا يضيع
3- اجر من احسن عملاً وطلباً للفوز بجنات الفردوس
4- التي اعدها للذين امنوا وعملوا الصالحات نزلا

---

[34] ناجي معروف / تاريخ علماء المستنصرية ، ص434 ، 444.
الدكتور مصطفى جواد / آثار بني العباس في العراق ، ص1057 الى ص1064 مجلة الهلال.
[35] خالد خليل حمودي / زخارف الابنية في العصر العباسي ، ص93.
ناجي معروف / تاريخ علماء المستنصرية ، ص434 ، 475.
مصطفى جواد / آثار بني العباس في العراق (مجلة الهلال) ، ص1057 – ص1064.
[36] خالد خليل حمودي / زخارف الابنية البغدادية في العصر العباسي ، ص93.

5- وامر ان تجعل المدرسة للفقهاء على المذاهب الاربعة
6- سيدنا ومولانا امام المسلمين وخليفة رب العالمين
7- ابو جعفر المنصور المستنصر بالله امير المؤمنين
8- شيد الله تعالى معالد الدين بخلود سلطانه واحيا
9- قلوب اهل العلم بتضاعف نعمه واحسانه وذلك في
10- سنة ثلثين وستماية وصلى الله على سيدنا محمد النبي وآله

كما توزعت خمس كلمات وضعت داخل ثلاث نجوم زخرفية تعلو باب المدرس وكما يلي (جنات عدن) (ابوابها) (مفتحه لهم) انظر شكل 18.

11- الخاتمـــــة :

ان هـذا التـراث الزخرفـي العظـيم اصـبح مصـدر الهـام للفنـانين القـدماء والمعاصـرين ، وان العصـور التـي اعقبـت العصـر العباسـي قـد اشـتقت كثيـر مـن هـذه الزخـارف الجميلـة. لقـد انتشـرت الزخـارف علـى الابـواب والعمـارات السـكنية والدينيـة والعسكرية مثل (اسوار وفتحات النوافذ سواء في المساجد او القصور والدور الصغيرة ولنـا خيـر شـاهد فيمـا موجـود فـي احيـاءنـا القديمـة فنلاحظ الزخـارف تمـلأ خـارج البنـاء وداخله وهذه الزخـارف او الوحدات الزخرفيـة المشتقة من الزخـارف الاسـلامية اخذت قسم منها من تلك الفترة او من فترات اخرى.

ان المدرسة المستنصرية ظلت طـويلاً تعـاني مـن الاهمـال والدمار الـى ان حـان الوقت الذي جاءت به هيئة الآثار لتبرز هذا الاثر المهم، ولاخراجه الـى العيـان رغـم مـا مضـى عليـه مـن الاهمـال لقـرون عديـدة. فلقـد ازيلـت عـن المستنصـرية وعـن جوانبهـا الاسواق التي لاصقتها والتي بنيت في فترات اخرى. وبعد ان ازالت ما لصق بها برزت هذه المدرسـة للنـاظر والسـائح شـامخة تحـدث النـاس عـن ايـام عزهـا وعلمهـا وعصـرها الذهبي .

ان المدرسة المستنصرية تبدو اليوم بعد ان بعثت بها الحياة مرة ثانيـة ورغـم مـا قامت به هيئة الآثار من العناية بها في السنين الماضية منذ بدايات القرن الماضـي، الا ان هذه المدرسة ظهرت بمظهر يختلف عما كانت عليه سابقاً من شموخ مع ابرازها للعيان بازالة ما لصق بها ونحن نتطلع اليها اليوم كونها احدى الشواهد الباقية من مدينـة السلام العباسية الخالدة.

المصادر والمراجع

1- المدرسة المستنصرية ببغداد (المصدر الرئيسي)
2- آثار بني العباس في العراق / الدكتور مصطفى جواد (مجلة الهلال) يونيو 1933
3- خطط بغداد / تأليف المستشرق الفرنسي كليمات هوار
عربه وعلق عليه الاستاذ ناجي معروف
4- المدرسة المستنصرية ببغداد / السيد كوركيس عواد / مستل من مجلة سومر العدد الاول السنة الاولى (مطبعة التفيض) بغداد 1945.
5- تاريخ علماء المستنصرية / تأليف ناجي معروف الجزء الاول
بغداد / مطبعة العاني
6- فنون الاسلام / الدكتور زكي محمد حسن / الطبعة الاولى
1948 (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر)
7- المدرسة المستنصرية (وصف آثارها الباقية وتاريخها) مديرية الآثار العامة
8- الفن الاسلامي (تاريخه وخصائصه) / تأليف الدكتور محمد عبد العزيز مرزوق مطبعة اسعد بغداد 1965.
9- الفن الاسلامي / ارنست كونل (ترجمة الدكتور احمد عيسى)
1966 دار صادر - بيروت
10- الموجز في تاريخ الفن العام / ابو صالح الالفي (الهيئة المصرية العامة للكتاب) 1973.
11- زخارف الابنية البغدادية في العصر العباسي / خالد خليل حمودي
مستل من مجلة آفاق عربية (العدد الثاني السنة الثانية) 1976.
12- المورد (مجلة تراثية فصلية) / تصدرها وزارة الثقافة والاعلام
عمارات بغداد في العصر العباسي / خالد خليل الاعظمي
دار الجاحظ المجلد الثامن العدد الرابع 1979.

شكل رقم – 1 –
يمثل مخطط الطابق الاول من المدرسة المستنصرية

شكل رقم – 2 –
يمثل مخطط الطابق الثاني من المدرسة المستنصرية

شكل رقم - 3 –
واجهة المدرسة المستنصرية المطلة على نهر دجلة ، ونلاحظ الجدار قبل الصيانة والترميم، ونلاحظ بقايا بعض الزخارف الجدارية وبعض الكتابات

شكل رقم – 4 –
عمليات الصيانة والترميم والصورة توضح شكل الصحن وربع الشافعية ونلاحظ الايوان القريب من جامع الاصفية على اليمين من الصورة اما على اليسار فنشاهد مدخل المسجد الصغير الذي يقابل ايوان المدخل

شكل رقم – 5 –
الصورة توضح زاوية خارجية للمدرسة المستنصرية. نشاهد عمليات الصيانة والترميم ونشاهد الشريط الاعلى قبل اعادة الكتابة. وهذه الزاوية المطلة على السوق

شكل رقم - 6 –
منظر آخر عمليات الصيانة واعادة الزخارف قرب ايوان المدخل ونشاهد في الصورة ربع الحنابلة وهو القريب من الجامع المقابل

شكل رقم – 7 –
هذه الصورة توضح ايوان القريب من جامع الاصفية. نلاحظ انه قبل الصيانة والترميم فنجد مدى الدمار الذي حل بهذا الايوان ونشاهد الزخارف وخصوصاً الشكل النجمي والصليب المعقوف

شكل رقم – 8 –
ركن من الايوان السابق نلاحظ تشابه زخارف الاواوين. وتشاهد بقايا الزخارف الهندسية والتي بداخلها زخارف نباتية. الصورة قبل الصيانة والترميم

شكل رقم – 9 –

صورة عامة توضح ربع الشافعية وربع الحنابلة وفي الوسط ايوان الشافعية ان هذه الصورة قبل ارجاع الزخارف على الجدران فنلاحظ اماكنها خالية وشاغرة

شكل رقم – 10 –
منظر عام للمدرسة المستنصرية نلاحظ الصحن محيط به الجدران والغرف وبعض الاواوين وربع الشافعية والحنابلة. نلاحظ ان الزخارف اعيدت على بعض الجدران

شكل رقم – 11 –
الواجهة المطلة على نهر دجلة بعد الصيانة. نلاحظ الزخارف الهندسية على شكل شريط على طول المدرسة ثم تحتها شريط من الكتابات الا ان الكتابات الحديثة لا توجد زخارف نباتية تتخللها لان الصيانة لم تكمل فيها

شكل رقم – 12 –
نجمة ذات زخارف نباتية من المدرسة المستنصرية عن مجلة آفاق عربية

شكل رقم – 13 –
رسم تخطيطي لزخارف هندسية نلاحظ الاشكال النجمية
الرسم خاص بالمستنصرية عن مجلة آفاق عربية

شكل رقم – 14 –
واجهة من واجهات الغرف المطلة على الصحن هذا الجزء القريب من نهر دجلة نلاحظ الزخارف الهندسية فوق فتحات الغرف أي ابوابها ثم اعادة الترميم الباقي في الطابق الاعلى

شكل رقم – 15 –
احدى الواجهات المطلة على صحن المدرسة. نلاحظ انواع من الزخارف الهندسية الجميلة. واشكال من المضلعات والنجوم تتخللها في كل وحدة زخارف نباتية. او اشكال هندسية اخرى

شكل رقم – 16 –
صورة تمثل ايوان المدخل الا ان الباب سابقاً كان مغلق
الصورة قديمة تمثل المدرسة في احدى ادوار صيانته قديماً الا ان هذا الايوان قد فتح فيه باباً يطل على السوق وهو الباب الرئيسي نشاهد الزخارف الهندسية المحيطة به.
ان فتحة او واجهة هذه الصورة لايوان المدخل تطل على الصحن مباشرة

شكل رقم – 17 –
احدى نماذج الزخارف الهندسية والتي تتخللها الزخارف النباتية

شكل رقم - 18 –
الباب الرئيسي المطل على السوق. الباب بعد الصيانة نلاحظ اشكال من الزخارف الهندسية كإطارات ثم نلاحظ الزخارف النباتية بين الحروف وفوق كلمة بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ. ونلاحظ ايضاً الزخارف الكتابية وهي التي تذكر حول بناء المدرسة وتاريخها وبانيها

شكل رقم – 19 –
قسم من الزخارف الكتابية او الكتابات الموجودة على المدرسة المستنصرية وهذا الجزء موجود على الباب الرئيسي للمدرسة. نلاحظ ترميم قسم من الكتابة. ونشاهد الزخارف النباتية متخللة بين الكتابات وبين الحروف. هذا الجزء الآن موجود على باب المدرسة الرئيسي بعد صيانة وارجاع وتكملة نصه

المدرسة المستنصرية
تخطيطها وزخرفتها

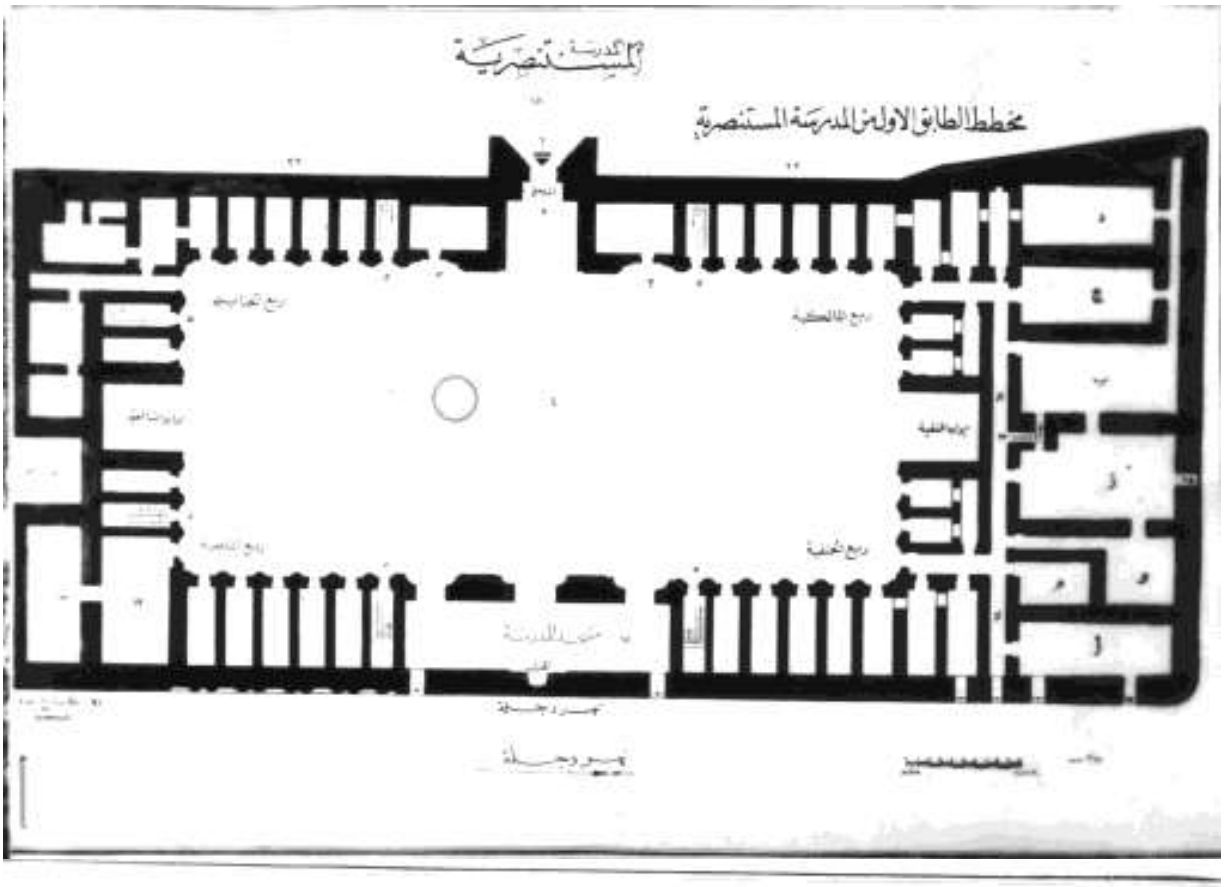
المدرسة المستنصرية
مخطط الطابق الاول من المدرسة المستنصرية

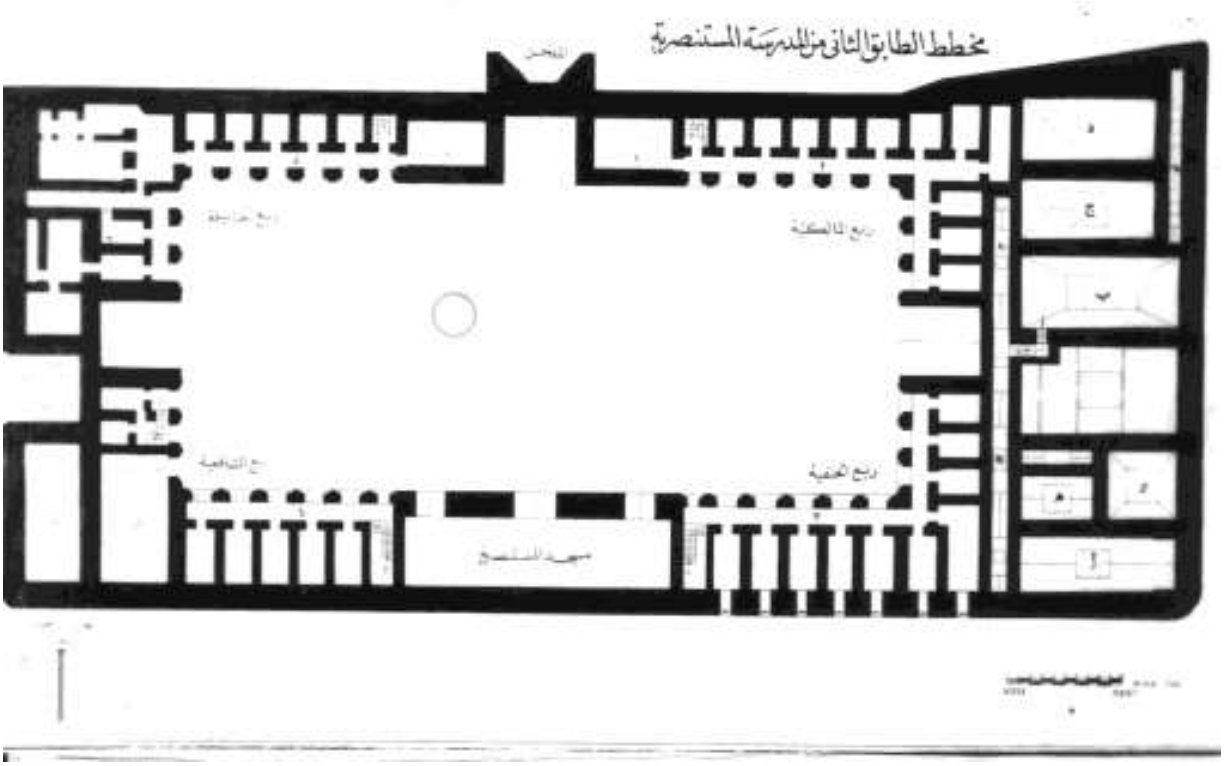
مخطط الطابق الثاني من المدرسة المستنصرية